١٢ ـ تاريخ العرب الأدبى

للأستاذ رينولد نيكلسون

ترجمة مسعد محمد مبشى

الفصـــل الثانى

ثم ملك بعده الحرث الأصغر بن الحرث الأعرج بن الحرث الأكبر ؛ ومن ولد الحرث الأعرج أيضاً عمرو بن الحرث الذى كان النابغة سار إليه حين فارق النعمان بن المنذر ؛ وكان يقال لعمرو أبو شمر الأصغر ومن ولده المنـذر بن الحرث والأيهم ابن الحرث ، والأيهم هذا أبو جبلة بن الأيهم ؛ وجبلة آخر ملوك غسان ، وكان طوله اثنى عشر شبراً ، وكان إذا ركب مسحت قدمه الأرض ، وأدرك الاسلام فأسلم فى خلافة عمر بن الخطاب ثم تنصر بعد ذلك ولحق بالروم . وكان سبب تنصره أنه مرّ فى سوق دمشق فأوطأ رجلاً فرشـه فوثب الرجل فلطمه فأخذه النسائيون فأدخلوه على أبى عبيدة بن الجراح[1] فقالوا هذا لطم سيدنا . فقال أبو عبيدة : « البينة بأن هذا لطمك ؟ » قال وما تصنع بالبينة ؟ قال إن كان لطمك لطمته بلطمتك . قال ولايقتل ؟ قال لا . قال تقطع يده ؟ قال لا ، إنما أمر الله بالقصاص فهى لطمة بلطمة ، فخرج جبلة ولحق بأرض الروم وتنصر ولم يزل هناك إلى أن هلك[2] » . وإن الأخبار العربيـة الخاصة بدولة الغساسـنة لحيرة موئسة ، وقل أن تمد الباحث بأى مادة حتى يستطيع أن يؤلف من شتاتها هيكلا تاريخياً تقريبياً باضافتها إلى النتف المبعثرة فى كتب المؤلفين البيزنطيين[3] . ويظهر أن أول أمير مستقل من الغساسـنة هو الحرث بن جبلة الذى اختاره جستنيانوس حوالى ٥٢٩ م ليكون فى جانبه ضد المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة ، وقد قضى الجانب الأعظم من حكمه الطويل (٥٢٩ — ٥٦٩) فى حروب طاحنة مع منافسه الخطير الذى ذكر شىء عن دفاعه وموته فى الواقعة الفاصلة واقعة حليمة التى أشرنا إليها آنفاً ، وكان الحرث مسيحياً يعقوبياً ، وقد دافع عن هذا المذهب دفاعاً شديداً فى حماسة منقطعة النظير فى وقت كان التملق بأهدابه إبانه مجازفة خطيرة . وإن القصة التاليـة لتصوّر خلقه الخشن المخيف : ذلك أنه فى أخريات أيامه زار القسطنطينيـة ليتفق مع السلطة الحاكمة هناك عمّن يخلفه من أبنائه ، واستطاع أن يجتذب اليه عطف الكثيرين ، وترك أثراً عظيما فى نفوس أهلها وخاصة ابن أخى الامبراطور جستنيانوس ؛ وبعد عدّة أعوام حينما تقدّم بجستنيانوس عمره وأصابه الجنون ، خافه حجابه إذ أخذ يهـذى بقوله : « هش سيأتى إرثاس ويأخذكم[1] »

وخلف الحارث ابنه المنذر الذى ظهر على ملك الحيرة الجديد قابوس بن هند عام ٥٧٠ م فى الموقعة التى ربما كانت هى المعروفة عند العرب بعين أباغ[2] ، وربما يكون رفض الامبراطور جستنيانوس إمداده بالمـال مانعاً إياه (المنـذر) من الاهتمام برعاية مصالحه ؛ وكان ذلك فاتحة عداء بينهما ، ولذلك تلبـدت سماء صداقتهما بغيوم عداء ظل مستحكم الحلقات إحدى عشرة سنة ؛ ومنذ ذلك الوقت حتى استيلاء الفرس على فلسطين سـنة ٦١٢ م ضربت الفوضى بجرانها ، وعمت أرجاء مملكة الغساسنة ، فأخذت القبائل المختلفـة تختار رؤساءها الذين كانوا بطبيعة الحال ، وفى كثير من الأحيان ، من جفنة ؛ ولكن الأسرة نفسها تحطمت تمـاماً ؛ وغير بعيد أن تكون قد استعادت قواها الدائرة وسطوتها الغابرة ، حينما طرد هرقل الفرس من أرض سورية سنة ٦٢٩ م إذ نجد الغساسـنة مراراً يحاربون المسلمين بجانب رومة ، ويتفق المؤرخون العرب جميعاً على أن جبـلة بن الأيهم الجفنى — الذى كان له ضلع كبير فى النزاع — هو آخر ملك غسانى ، وقد حكم حوالى سنة ٦٣٥ م ؛ وأن الشاعر حسان بن

(١) أحد صحابة الرسول قاد الجيش الاسلامى فى فتح الشام ، ومات سنة ٦٣٩ م

(٢) ابن قتيبه Brünnow : chrestomathie pp. 26 — 28

(٣) التفاصيل المذكورة مستقاة من مقال تلدكه

Die Ghassânischen Fürsten aus dem Hause Gafna's فى Abhband. d.Kön. Preuss Akad. d.Wiss-enschaften (Berlin, 1887) ٨ ، ١٠

(١) يرى تلدكه (المرجع السابق ص ٢٠) أنها تشير الى قيس افسيوس (الباب الثانى الفصل الثالث) راجع :

The Ecclesiastical History of John, Bishop of Ephesus trans. by R. Poyne Smith, Part III, q. 168

(٢) لا يمكن أن تكون هذه الواقعة هى نفس واقعة « عين أباغ » التى حدثت بين المنذر بن الحرث بن جبلة والمنذر الرابع ملك الحيرة عام ٥٨٣ م راجع :

Guidi : L'Arabi antéislamique, p. 27.

ثابت الذى كانت تربطه رابطة القربى بالغساسنة قد زار فى شبابه بلاطهم فصوّر لنا تصويراً شاملاً دقيقاً ما يموج به من سور النعيم والترف والعظمة فى قوله[1] « لقد رأيت عشر قيان : خمسا روميات يغنين بالرومية ، وخمسا يغنين غناء أهل الحيرة أهداهن اليه إياس[2] بن قبيصة ، وكان يفد اليه من يغنيه من العرب من مكة وغيرها ، وكان إذا جلس للشرب فرش تحته الآس والياسمين وأصناف الرياحين ، وضرب له العنبر والمسك فى صحاف من الفضة وأوقد له العود المندى إن كان شانياً ، وإن كان صائفاً بطن بالثلج وأتى هو وأصحابه بكساء صيفية يتفضل بها هو وأصحابه فى الصيف ، وفى الشتاء القراء والفنك وما أشبهه ؛ ولا والله ما جلست معه يوماً قط إلا خلع على ثيابه التى عليه فى ذلك اليوم وعلى غيرى من جلسائه . هذا مع حلم عمن جهل ، وضحك وبذل من غير مسألة ، مع حسن وجه وحسن حديث ، ما رأيت منه خنا قط ولا عربدة[3] »

ولم تكن إقامة الغساسنة ثابتة بعكس منافسيهم فى الفرات ، فقد حكموا الاقليم الذى حول دمشق وتدمر ، ولكن هذه الأماكن لم تكن فى حوزتهم أبدا ، وكانت عاصمة ملكهم البدوية « الحيرة » التى ظلت تنتقل معهم هنا وهناك ، ولكنها كانت توجد عادة فى الجولان جنوب دمشق ، وقد استطاع الغساسنة أن ينشئوا حضارة أعظم من حضارة اللخميين لتأثر الأوّلين تأثرا شديداً بالثقافة الاغريقية ، وللطبيعة البدوية التى كان عليها الآخرون الذين كانوا أوثق اتصالاً بالعرب الوثنيين الذين استطاعوا أن يسموهم بميسمهم . وإن بعض مظاهر هذه الحضارة لتتضح لنا من خلال الوصف الشائق لبلاط جبلة بن الأيهم ، ذلك الوصف الذى ينسب إلى الشاعر حسان . ولما سبّ النعمان الثالث ملك الحيرة جام غضبه على الشاعر الألمى النابغة هرب إلى سورية حيث نظم قصيدة رائعة امتدح فيها الغساسنة فى شخص مليكهم الحرث بن الأعرج ، وبعد أن امتدح بسالتهم وشجاعتهم فى ركوب متن الأهوال التى صوّرها فى بيت واحد قوى يقول فيه :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلول من قراع الكتائب

أخذ يقول :

لهم شيمة لم يعطها الله غيرهم ... من الجود والاحلام غير عوازب
محلتهم ذات الأله ودينهم ... قويم فما يرجون غير العواقب
رقاق النعال طيب حُجزاتهم ... يحيوّن بالريحان يوم السباسب
تحييهم بيض الولائد بينهم ... وأكسية الاضريج فوق المشاجب
يصونون أجساداً قديماً نعيمُها ... بخالصة الأردان خضر المناكب[1]

وتاريخ البدو أيام الجاهلية لا يخرج عن كونه سجلا لحروبهم ، أو بالأحرى عن ذكر عصابات كانت تغير على القوافل بين آن وآخر للسلب والنهب . ولم تكن ثمت حاجة إلى الاستفاثة ، بل كان كل فريق منهم يفخر بنسبه ، ويرى الآخر بوابل هطال من الأهاجى المقذعة وتؤسر الابل والنساء ، كما كانت المناوشات العدة تقوم بينهم ، ولكن القليل منها يؤدى الى نشوب حرب ، وكان ذلك نوعاً من الحروب الهوميرية أتاح فرصة طيبة للقيام بأعمال تنطوى على البطولة . ويقول توريك فى ذلك : « وإذا شئنا أن نكتب التاريخ الواقعى لمثل هذه المنازعات البدوية وجدنا ذلك أقرب الى المستحيل . أما عن المصادر المعاصرة لها التى تستأهل عناية الباحث ، فليس لدينا سوى القصائد والمقطعات الشعرية التى ظلت محفوظة . وطبقاً لما يذكره السيوطى كان العرب يطلبون من أى بدوى يقص حادثة تاريخية أن يقرنها ببعض أشعار تتعلق بها . وفى الحقيقة أن هذه الأقاصيص وأشباهها التى حفظت على مر العصور حتى وصلت إلينا قد تبلورت حول القصائد . ومما يؤسف له أنها قلما كانت صحيحة ، وكثيراً ما يتضح أن الأقاصيص قد اخترعت اختراعا حتى توافق موضوع الأشعار[2] »

(يتبع)

حسن عبشى

(١) الأغانى ج ١٦ ص ١٥ س ٢٢ — ٣٠

(٢) تولى أياس بن قبيصة ملك الحيرة (٦٠٢ — ٦١١ م) عقب النعمان الثالث وينمى الى قبيلة طى . راجع ما كتبه Rothstein فى : Lahmiden, P. 119.

(٣) مع استبعاد أن تكون هذه القطعة من قول حسان فهى مشكوك فيها ، ولكن هذا لا يؤثر جديا فى قيمتها إذا اعتبرنا أنها مأخوذة من ديوان الشاعر نفسه الذى نكلم فيه مرارا عن الغساسنة ، والاشارة الخاصة الى جبلة بن الأيهم خطأ ، فان معرفة حسان بالغساسنة ترجع الى أيام أن كان وثنياً ؛ والمعروف أنه اعتنق الاسلام قبل حكم جبلة بعدة سنوات

(١) ديوان النابغة الذبيانى طبعة Derenbourg ص ٧٨ ، وفى Delectus لتلك ص ٩٦ ، وقد ترجم القصيدة بأكملها سير الزفيل فى كتابه Ancient Arabian Poetry, P. 95

(٢) Thorbecke : Antarah, ein vorislamis-cher Ditcher, P. 14